قصيدة في أصول فقه الظاهرية

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم
(تـ : 456 هـ)

أعدها
مصطفى الوضيفي ومصطفى ناجي

مركز إحياء التراث المغربي
الرباط

[قصيدة في أصول فقه الظاهرية] (*)

تعدى سبيل الرشد من جار واعتدى   وضاء له نور الهدى فتبلدا
وخاب امرؤٌ وافاه حكم محمد   فقال بآراء الرجال وقلدا
نبيٌّ أتى بالنور من عند ربه   وما جاء من عند الاله هو الهدي
أرى الناس أحزابا وكل يرى الذي   يجيء به المنجي وسائره الردى
وألقوا كتاب الله خلف ظهورهم   وقول رسول الله ويلهمو غدا
وقالوا بأن الدين ليس بكامل   وكذب ما قالوا الإله وفندا
وما فرط الرحمان شيئا ولم يكن   نسيًا ولم يترك بريته سدى
وقد فصل التحريم والحل كله   وبيّن أحكام العباد وسددا
وعلّم وجه الحُكم فيما اعتدوا به   ونصّ عليه الحُكم نصا ورددا
ولم يتعبدنا بعنْت ولم يُرد   يكلفنا ما لا نطيق تعبدا
وحرم قول الظن في غير موضع   وأن تقتفي ما لست تعلم موعدا
أخي عد عن سبْل الظلال فإنني   رأيت الهدى أهدى دليلا وأرشدا
ودع عنك آراء الرجال وقولهم   وخذ بكتاب الله نفسي لك الفدا
وقل لرسول الله سمعا وطاعة   اذا قال قولا أو تيمم مقصدا
أوامره حتم علينا ونهيه   نلاقيه (1) بالأقلاع عنه مجردا
حرامٌ وفرضٌ وطاعةٌ قد تيقنت   ومن ترك التخيير والوقف (2) سددا
فإن يبد برهان يبين أنه   على غير ذا صرنا معا للذي بدا
وأفعاله اللّائي تُبَيِّنُ واجبا   من الله فاحملها عليه وما عدا
على أسوة لازلت مُؤْتسيا به   وليست بفرض والسعيد من اقتدا
وإقراره الأفعال منه اباحة   لها فمحال أن يُقِرَّ (3) من أفسدا
وما صح هنه مسندا قل بنصه   وإياك لا تحفل بما ليس مسندا
وسو كتاب الله بالسنة التي   أتت عن رسول الله تنجو من الردى

(*) هذا العنوان من اقتراحنا.

(1) وجهها أبو عبد الرحمان هكذا : «تلافيه».

(2) في المخطوط ونشرة الأستاذ الكتاني : «الوقوف» وصوبناها وفاقا لما ذهب إليه أبو عبد الرحمان

(3) في المخطوط والنشرتين «تقرُّ»

سواء أتت نقل التواتر أو أتت ... بما قد روى الآحاد مثنى ومُوْحدا
وقل إنه علم ولا تقل إنه ... من الظن ليس الظن من دين أحمدا
فكل من الوحي المنزل قد أتى ... عن الله إن الذكر يُحفظ سرمدا
وخذ ظاهر الألفاظ لا تتعدها ... الى غاية التأويل تبق مؤيدا
فتأويلها تحريفها عن مكانها ... ومن حرف الألفاظ حاد عن الهدى
فإن جاء برهان بتأويل بعضها ... فالق الى الحق الذي جاء مقلِدا
وكل عموم جاء فالحق حمله ... علِى مقتضاه دون أن تتَرددا
وإن جاء بالتخصيص نص فخصه ... به وحده واحذر بأن تتزيدا
وأخرج قليلا من كثير وإن بدت ... معارضة فاشدد على الزائد اليدا
وإن صح ما بين النصوص تعارض ... فمنسوخها ما جاء منهن مبتدا
وإن عُدم التاريخ فيها فخذ بما ... يزيد على المعهود في الأصل ترشدا
تكن موقنا أن قد أطعت وتاركا ... لكل مقال قيل بالظن مُبْعدا
وكل مباح في الكتاب سوى الذي ... يُفَصِّلُ بالتحريم منه معدَّدا
وإن لم يرد نص بإلزام طاعة ... من الله لم يلزمك أن تتعبدا
وعند اختلاف الناس فالحكم راجع ... إليه وبالإجماع من بعد يهتدى
وذاك سبيل المؤمنين ومن يرد ... خلاف سبيل المؤمنين فما اهتدى
ولا تدع الإجماع فيما جهلته ... ولم تعلم التحقيق جمعا ومفردا
وإن امرؤ في الدين حكم نفسه ... قياسا أو استحسان رأي لذو اعتدا
فتلك حدود الله لا تعتدنها ... ومن قال بالتعليل فيه قد اعتدى
وجاء بدعوى لا دليل يقيمها ... وأسرف في دين الإله وألحدا
ومن قال محتاطا بردع ذريعة ... برأي رآه قد أتى اللهو والدَّدا (4)
محل حرام أو محرم ما أتى ... بتحليله نص الكتاب (5) تعمُّدا
ومن يدعى نسخا على الحكم لم يجىء ... على ذاك بالبرهان ليم وقيُّدا (6)

---

(4) في النشرتين «الردى»

(5) رسمت الكلمتان في المخطوطة هكذا «.. صلي لكتاب» مع سقوط حرف من الأولى ويدون اكف في الثانية فوجهها الأستاذ الكتاني الى «خطى الكتاب» وأبو عبد الرحمان الى «مخط الكتاب».

(6) عند الكتاني «ليس مفندا» وأبو عبد الرحمان «ليم مفندا» وفي المخطوط «ليم وقيدا» كما أثبتنا.

(7) وجهها أبو عبد الرحمان الى «فلا تعد» بدل «إنه لا تعد».

ولا تنتقــل عـن حـال حكـم علمتـه | لقـول عن الإجماع والنص جـــردا
من الحـل والتحـريم أو من لـــوازم | عليك أنه لا تعد (7) السبيل الممهـدا
ولا تلتفت (8) حكـم البلاد وجريـــها | علـى عمـل ممـن أغـار وأنجـــدا
وإن لـم تجـد نصا على الحكم فالتمس | الى قصده جمع النصوص لترشـــدا
فتمنح حكــما بينهـا قـد جهلتـه | وتجمـع شمـلا كـان منـها مبــددا
وذاك علـى معنــاه نـص وإنـــه | لحق كما لـو كـان نــصا مجـــردا
وهذا الذي يُدعى اجتهادا وليس مـــا | تَقُولـــه أولـــو الآراء تلـــددا
وأثقلهم جمع النصوص فأظهـــروا | على الدين نقصان النصوص تبلـــدا
وقالــوا لنــا إكمالـــه وتمامــه | تباركت ربـــي أن تكـون مفنـــدا
وقد قلــت إن الديــن أكملتــه لنــا | وفصلته والحق مـــا قلــت ممــجدا
ولا تلتفت (8) عند الخطاب دليلــه | ولا تلتزم شرعا سوى شرع أحمــدا
فكل نبــي خــص إنــذار قومــه | وأحمد عم النــاس أدنــى وأبعــدا
وأخلص لدى الأعمــال نيــتك الــتي | بها ترتقي الأعمــال لـله مصعــدا
وصلى على الزاكي المجير عن العمــى | نبي الهدى خيـر الأنـــام محـــمدا
ولله حمدي سرمدا غيـــر منقـــض | على ما هـدى حمـــدا كثـيرا مـــرددا

يروي هذه القصيدة أبو الوليد سعد السعود (9) أحمد بن عفير. قال: أنشدنيها الفقيه.. ؟ (10)

(8) وجهها أبو عبد الرحمان الى «ولا تلتقف» في الموضعين.
(9) في المخطوط «السعودي» وصوابه من الذيل والتكملة ج 4، ص 18.
(10) هكذا ينتهي الموجود من المخطوط.